الفصل الرابع

نشأة الحكومة العسكرية (باكفو) فى إيدو

١ - الصراع على السلطة وموقعة سيكى جاهارا :

اشـتهر عن طوكوجاوا إيياسو فى التاريخ اليابانى أنه استطاع التهام كعكـة التوحيـد التـى صنعها كلاً مـن الزعيمين السـابقين عليه وهما نوبوناجـا وهيديوشـى دون أدنى مجهود يذكر منـه، وفى الحقيقة إن فى هذا القول الكثير من التجنى على إيياسو وكفاحه. فمنذ بدء حروب نوبوناجا من أجل توحيد البلاد كانت أيضا لإيياسـو صولات وجولات عديـدة. فهـو تارة يقف بجانـب نوبوناجا فى حروبـه ضد خصومه. مثل إرسـاله جيش كبير يعاون نوبوناجا فى حربه ضد عشـيرتى أساى وأسـاكورا فى موقعة أنى جاوا Anegawa وذلك فى عام ١٥٧٠م. ومن أجل أن يقترب أكثر وأكثر اسـتطاع تزويج ابنه البكر من ابنة نوبوناجا وكانت تدعى طوكى هيمى، وقد اسـتعمل أيضا مكره الذى اشـتهر به. فعندما قتل زعيم الوحدة نوبوناجا على يد تابعه ميتسو هيدى ابتعد عن مدينة سـاكاى القريبة من الأحداث متجنبا الصدام مع ميتسـو هيدى. فذهب بعيـدا إلى منطقة نفوذه فى طوطومى (غربى محافظة شـيزوأوكا الحالية) وأثناء انشغال هيديوشى فى حروبه ضد أعدائه من أجل اعتلاء مكانة سـلفه العظيم نوبوناجا. استطاع إيياسو أن يمد نفوذه إلى المنطقة الساحلية الواقعة على المحيط الهادى والتى تقع فى الجزء الجنوبى من

منطقة منتصف اليابان، وهى تضم محافظة شيزوأوكا وأيتشى ومى وجزء من محافظة جيفو الآن (Tokai Chiho).

وبعد ذلك وفى عام ١٥٨٤م دخل فى حرب ضد هيديوشى من أجل القبض على مقاليد الأمور فى البلاد وتوحيدها تحت إمرته وذلك فى موقعتى كوماكى Komaki وناجا كوتى Nagakute، ولكن لم يحسم الأمر فى هاتين الموقعتين لأى من الطرفين.

ثم تم عقد الصلح بينهما، بل إن إيياسو انخرط فى نظام هيديوشى بعد ذلك، والأكثر من ذلك فقد عقد إيياسو زواجا سياسيا مع هيديوشى حيث تزوج من أخته الصغرى والتى كانت تدعى أساهى هيمى. وحتى يأمن الطرفين جانب كل من بعضهما البعض تبادلا الأسرى فيما بينهما حيث أرسل هيديوشى والدته وكانت تدعى أوماندوكورو Omandokoro لإيياسو كرهينة وأرسل إيياسو ابنه هيدى تاكا لهيديوشى كرهينة أيضا. وبعد ذلك ظل إيياسو بولاءه الظاهرى فقط نحو هيديوشى، حتى إن الأخير كان دائما ما يطلق عليه «السيد إيياسو الرجل الوفى».

وفى خضم إخضاع هيديوشى للمقاطعات الغربية كان إيياسو آنذاك فى مواجهة مع عشيرة هوجو فى أوداوارا (جنوب غرب محافظة كاناجاوا)، ولكن بعد سقوط هذه العشيرة القوية على يد هيديوشى فى عام ١٥٩٠م انتقل إيياسو بنفوذه إلى المنطقة الشرقية (Kanto)، وكذلك استطاع حيازة إقطاعات شاسعة ولذلك يعتبر سقوط هذه العشيرة نقطة تحول كبيرة بالنسبة لهيديوشى وإيياسو على السواء، فقد استطاع بذلك هيديوشى أن يكمل عملية التوحيد على أكمل وجه، واستطاع إيياسو أن يجعل من المنطقة الشرقية معقلاً لنفوذه وهو لذلك سوف يؤسس عاصمته إيدو فى هذه المنطقة فيما بعد.

قام إيياسو بتوسيع وتضخيم قلعة أيدو والتى سوف يتخذ منها قاعدة انطلاق لنفوذه، وعمل أيضا على تحسين مرافق المدينة، وذلك بإنشاء قناة مياه كاندا التى كانت تمد المدينة بالمياه العذبة، وفى ما يتعلق بإحكام قبضته على محاربيه وتابعيه، فقد وضع صغارهم بالقرب من قلعة أيدو وأقطعهم الأراضى فى المنطقة التى حواليها. أما كبارهم فقد أبعدهم إلى المقاطعات الأخرى التى كانت تحت سيطرته ونفوذه مثل طوطومى وسوروجا (كلاهما فى محافظة شيزوأوكا الآن) قاصدًا من ذلك حماية أيدو وتأمينها، ومن أجل عمل هذا الإجراء كان على إيياسو أن يقوم بعملية مسح للأراضى حول قلعة إيدو.

هكذا استطاع إيياسو أن يدير الأمور فى مناطق نفوذه بحذق شديد منذ استطاع توسعتها، كذلك فقد استطاع أن يصبح على رأس مجموعة المستشارين الخمسة الكبار التى كونها هيديوشى حين علم بقرب أجله. وبلغ من مكره وذكائه أن امتنع عن إرسال قواته فى الحملتين اللتين أرسلهما هيديوشى عامى ١٥٩٢م – ١٥٩٧م لإخضاع كوريا، فاستطاع بذلك أن يدخر هذه القوات لمعارك حاسمة أخرى، ولم يتوقف سعى إيياسو عند تقوية دفاعات إقطاعاته وتنظيم الحياة بها وكذلك استعمال المكر فى إدخار قواته بل تعدى ذلك إلى محاولة كسب ود وحب كل الدايميوات وذلك بتقديم مختلف الخدمات والرعاية لهم فى كل المجالات تقريبًا، ولذلك أطلق على إيياسو لقب الرجل الماكر لأنه كان يستعمل كل مهاراته لكى يصل لما يريد.

وفى المقابل فإن الدايميوات الآخرين الذين ساندوا هيديوشى فى حملتيه على كوريا قد تكبدوا خسائرا كبيرة مما أثر فى فاعلية قواتهم

ونتج عن اشـتراكهم أيضا حدوث انقسامات بين الدايميوات المتحالفين نظرا لاختـلاف وجهات نظرهم فى معالجة أمور الحرب فى كوريا كما أسـلفنا القول. وهـذا ما أدى بالتالى إلى إحداث ضربة قاسـية فى نظام هيديوشى السياسى بعد موته.

ولم تكـن قدرات ومهارات إيياسـو وحدها التى مهـدت له الطريق نحو تقلد مقاليد الحكم فى كل البلاد بعد التوحيد، بل كان القدر أيضا وكأنه يمهد له طريق السـيادة، فبعد موت هيديوشـى لم يلبث أن مات أيضا مائيدا طوشى إييه Maeda Toshiie فى العام التالى (١٥٩٩م) وهو الذى كان من بين أعضاء مجموعة الخمسـة الكبار من يستطيع مواجهة إيياسو بندية، أما الثلاث الآخرون الباقون فقد عادوا إلى مقاطعتهم بعيدا عن مسرح الأحداث فى كيوطو، وبذلك خلت الساحة تقريبا لإيياسو إلا من تابع هيديوشـى المخلص إيشيدا ميتسـوناري Ishiida Mitsunari (١٥٦٠م – ١٦٠٠م) وهـو أحـد أعضـاء اللجنة الأخـرى التى كونها هيديوشـى مـن أجل ضبط أمـور الحكم فى نهاية حياتـه، وهى لجنة المسـئولين الخمسة كما أسـلفنا القول بأن ميتسـو ناري كان على رأس هذه اللجنة، وقد صمم ميتسوناري على مواجهة إيياسو معضدا فى ذلك موقف ابن هيديوشـى هيدى يورى وراغبا فى اسـتعادة نظام هيديوشى السياسى.

ومـن أجل التحكم فـى كل الدايميـوات وإرهابهـم وعلى الأخص ميتسـوناري كان لابد لإيياسو أن يستعرض قوته ويقدم ضحية من أجل ذلك، وكان الطعم الذى قدمه إيياسـو هو دايميو أيزو Aizu أوى سـوى كاجى كاتسو Uesugi Kage Katsu (١٥٥٥م – ١٦٢٣م) الذى تحالف

مع ميتسو ناری من أجل إسقاط إییاسو، وسوف یُهزم کاجی کاتسو أمام إییاسو فی المعرکة الحاسمة سیکی جاهاراو ولذلك خُفضت مخصصاته من ملیون ومائتی ألف جوکو إلی ٣٠٠ ألف جوکو فقط.

علی أیة حال کان علی إییاسو أن یواجه العدید من الدایمیوات والمسئولین بعد موت هیدیوشی ومائیدا طوشی إییه. فقد کان جمیع أعضاء هیئة المستشارین الخمسة وهیئة المسئولین الخمسة أیضا یضع نصب عینیه صولجان الحکم، ولذلك حیکت المؤامرات حول قلعة أوساکا وغیرها من الأماکن من أجل ذلك.

ولکن مهما کان من کراهیة ومنافسة الدایمیوات العظام لإییاسو فلم یکن ذلك یُقارن بکراهیة وحقد إیشیدا میتسو ناری علیه، خاصة وأنه کان علی رأس هیئة المسئولین الخمس، وعلیه تربص کل من الزعیمین بالآخر. وفی یولیو عام ١٦٠٠م هاجم میتسوناری قلعة فوشیمی وبذلك بدأت الحرب الفعلیة بین الطرفین، وفی ١٥ سبتمبر تقابل جیش الشرق بقیادة إییاسو وجیش الغرب بقیادة إیشیدا میتسو ناری فی منطقة سیکی جاهارا التی تقع فی مقاطعة مینو (محافظة جیفو الآن)، وکان قوام جیش الشرق مائة وأربعة ألف جندی، أما جیش الغرب فکان قوامه خمس وثمانون ألف جندی.

ونظرًا للعدد الکبیر من الجنود الذین اشترکوا فی هذه الموقعة فقد کانت من أکثر المعارك شهرة فی التاریخ الیابانی الوسیط وذلك لشدة بأسها وحمیة وطیسها، فقد بدأت المعرکة فی الثامنة صباحا، وحتی الظهیرة لم یتحدد المنتصر من المهزوم، ولکن بسبب خیانة أحد محاربی الجیش الغربی وکان یدعی کوباياکاوا هیدی آکی Koboyakawa Hideaki

كانت الغلبة للمعسكر الشرقى بعد قتال عنيف، وكان من نتيجة انتصار جيش الشرق أن تم القبض على ميتسو ناری وعدد من أنصاره وتم إعدام ميتسو ناری ومعاونه كونيش يوكى ناجا Konishi Yukinaga (١٥٤٠م – ١٦٠٠م) وغيرهما فى كيوطو، وتم إبعاد أوكيتا هيدى إييه Ukita Hideie (١٥٧٢م– ١٦٥٥م) وهو أحد أعضاء لجنة المستشارين الخمسة – إلى جزيرة هاتشيجوجيما التى تبعد ٣٠٠ كيلو متر عن طوكيو، كذلك فقد تم مصادرة أراضى ٩٣ من الدايميوات الذين عاونوا جيش ميتسوناری، وكانت هذه الأراضى تمثل نحو ثلث كل الأراضى فى اليابان وتم تخفيض إقطاعات موری تروموطو من مليون ومائتى ألف جوكو إلى ٣٧٠ ألف فقط، وإنزال إقطاعات أوی سوجى كاجى كاتسو من مليون ومائتى ألف جوكو إلى ٣٠٠ ألف فقط، وعلى الجانب الآخر فقد تم مكافأة الدايميوات الذين ساندوا إييياسو فى حربه ضد الجيش الغربى بطريقة سخية لدرجة إقطاع صغار أتباع إييياسو أراضى خارج المنطقة الشرقية ومعاملتهم معاملة الدايميوات أنفسهم.

ولكن على الرغم من الانتهاء من الانتصار الساحق لعائلة طوكوجاوا فى معركة سيكى جاهارا، ومعاقبة العائلات والدايميوات والقواد المناوئين لها بتخفيض مخصصاتهم، إلا أن ما كان يقلق إييياسو ومؤيديه هو كيفية إعمال قبضته على كل أنحاء البلاد ووضع مقاليد الأمور بين يديه وهذا ما سوف نتعرف إليه فيما يلى من أحداث.

٢ - نشأة الحكومة العسكرية فى إيدو :

كان انتصار إييياسو فى موقعة سيكى جاهارا بمثابة الخطوة الحاسمة الأولى من أ ل إحكام قبضته على البلاد، ولكن كان عليه أن يقوم

بخطوات أخرى عديدة من أجل هذا الهدف الذى كان نصب عينيه منذ فترة طويلة، وقد تحققت الخطوة الحاسمة الثانية بحصوله على لقب سى إى تاى شـوجون – القائد الأعظم قاهر البرابرة – فى فبراير ١٦٠٣م، فبحصولـه على هذا اللقب الرفيع اسـتطاع إيياسـو أن يتحكم فى كل دايميوات اليابان وأن يصبح القائد الفعلى لهم، كذلك استطاع أن يستقل تماما عن نظام هيديوشى وعليه استطاع أن يكون له حق إعطاء الأمر لكل الدايميوات والمحاربين لخوض الحروب، وكان من ضمن أسـباب تحكم إيياسـو فى كل دايميوات اليابان إعلان عشـيرة شيمازو من موقعهم فى كيوشـو خضوعهم التام له، وإلى جانب ذلك فقد اسـتأثر إيياسـو بقلوب معظم الدايميوات بسبب رعايته لهم والقيام على شئونهم ولم يكن يبغى مـن وراء ذلك الخير للدايميوات، وإنما كان يبغى مؤازرتهم له من أجل إحـكام قبضته على البلاد، ولذلك أطلق عليه لقب «العم الماكر» على أية حال فقد دانت معظم البلاد لإيياسـو بالطاعة والولاء بعد أن قضى على غريمه إيشـيدا ميتسو ناري فى موقعة سـيكى جاهارا وغاب كذلك كل الساسة الأقوياء عن المسرح السياسى، ثم أسس إيياسو حكومته العسكرية فى إيدو وأصبح الشـوجون الأعظم فى عام ١٦٠٣م، ولكنه لم يلبث أن تنازل عـن هذا اللقب لابنه الثالث وكان يدعى هيدى تادا (١٥٧٩م – ١٦٣٢م) فى عام ١٦٠٥م أى بعد سنتين فقط من توليه لقب الشوجونيه الذى قصره على نفسـه وأولاده فقط من بعده، ثم ذهب إيياسو للمعيشة فى مقاطعة سونبو (محافظة شيزو أوكا) ولكن بقيت مشكلة تؤرق مضجع إيياسو، وهى خشيته أن يطالب ابن طويوطومى هيديوشى الصغير السن – وكان يدعـى هيدى يـورى (١٥٩٣م – ١٦١٥م) حيث كان آنذاك ما

يزال فى الثانية عشر من عمره – بحقه فى الحكم إذا ما كبر. ولم يكن هيديورى برغم صغر سنه خالى الوفاض من الممتلكات حيث كان يتحكم فى ثلاث مقاطعات كبيرة فى غرب البلاد وهى ستسو Setsu وكاواتشى Kawachi وإيزومى Izumi، هذا إلى ما يزيد عن ٦ مليون ونصف المليون جوكو من الأرز بما يعنى أنه من الطبقة العليا من الدايميوات، فكان برغم قبض إيياسو على مقاليد الحكم يعتبر الوريث الوحيد لنظام هيديوشى، ولذلك عمل إيياسو على أن يقطع الأمل على هذا الصبى وأمه يودو جيمى Yodogimi فقام بإصدار فرمان يورث بمقتضاه منصب الشوجون فى عائلة طوكوجاوا فقط كما أسلفنا القول.

ولكن بمرور الوقت وعندما أصبح هيدى يورى فى العشرين من عمره زاد أمل معسكر هيديوشى فى استرجاع قبضتهم على الحكم خاصة أن إيياسو كان قد وصل إلى السبعين من عمره ولذلك كان الأمل معقودا أكثر على شاب قوى فى العشرين من عمره، هذا إلى جانب الأموال الوفيرة التى كانت بحوذة معسكر هيديوشى، وفى هذه الأثناء وقعت حادثة نقوش جرس معبد هوكوجى فى أغسطس ١٦١٤م، وهذا المعبد قام بإنشائه طويوطومى هيديوشى ولكنه تعرض لزلزال عنيف فى عام ١٥٩٦م فتهدم تماما ثم عمل إيياسو على إقناع ابن هيديوشى وهو هيدى يورى من أجل إعادة بناء هذا المعبد، ولم يكن إيياسو حسن النية وإنما كان يريد من وراء ذلك إفلاس هيديورى وعائلة طويوطومى بشكل عام من وراء بناء مثل هذا المعبد الضخم، وبالفعل تم بناء معبد هوكوجى الضخم وقبل إزاحة الستار عن الجرس الضخم الذى يميز قاعة تمثال بوذا العملاق حدثت المشكلة، حيث جاءت كلمات النقوش المنقوشة على هذا الجرس

تمجد وتبجل من عائلة طويوطومى وتحقر من شأن إييياسو وعائلته وذلك حسبما رأى بعض رجال الباكفو مما أغضب إييياسو أشد الغضب.

وحتى تتجنب عائلة طويوطومى غضبة إييياسو حاولت قدر استطاعتها نفى هذه التهمة عنها، ودافعت عن نفسها معلنة أنها مجرد نقوش معتادة، وليس من نية عائلة طويوطومى التحقير من شأن إييياسو وعائلته على الإطلاق، واندهشت أرملة الزعيم طويوطومى يودو جيمى لهذه الحجة الواهية من قِبل الباكفو والتى كانت تتوجس خيفة من ورائها ، ولذلك بعثت لإييياسو برسول للمكان الذى كان يقطن به وهو مقاطعة سونبو (Sunpu) وهى محافظة شيزو أوكا الحالية كى تشرح له الأمر على حقيقته، وكان هذ االرسول هو تابع طويوطومى المخلص كاتا جيرى كاتسو موطو Katagiri Katsumoto (١٥٥٦م – ١٦١٥م) وكان أحد المحاربين المشهورين بشجاعتهم، وذاعت شهرته فى موقعة شيزوجاتاكى Shizugatake التى انتصر فيها طويوطومى على غريمه شيباتا كاتسو إييه Shibata Katuie (١٥٣٠م – ١٥٨٣م) من أجل تحديد من يرث الزعامة بعد أودا نوبوناجا، وذلك فى عام ١٥٨٣م، ولكن هذا المبعوث لم يستطع مقابلة إييياسو ولكنه أبلغ بما يفكر به إييياسو وهو أن يرحل ابن طويوطومى عن قلعة أوساكا أو يبعث بأمه يودو جيمى كرهينة فى إيدو عاصمة الباكفو، وعليه عاد كاتسو موطو إلى أوساكا يحمل معه فشله فى إقناع إييياسو بالعفو عن عشيرة طويوطومى وأتباعها.

وفى أوساكا كان الصراع بين وجهتى نظر:

الأولى: ويتبناها كاتسوموطو والذى يرى أنه لابد من الخضوع لأوامر إييياسو وعدم اللجوء للحرب ربما لما رآه من السطوة والقوة التى يتمتع بهما إييياسو بعد مشواره الطويل من أجل إحكام قبضته على البلاد.

أمـا الثانيـة : فـكان يتزعمهـا أونوهاروناجـا Ono Harunaga (؟ – ١٦١٥ م) فكانـت ترمـى إلى تحـدى إيياسـو ومحاربته حتى لا يتجرأ على عشـيرة طويوطومى، وبالفعل آثر الأول أن يركن إلى السلامة فخرج من قلعة أوسـاكا وذهب ليمكث فى قلعـة خاصة به فى مقاطعة إيباركى القريبة من أوساكا.

أما معسكر طويوطومى الموجود فى أوساكا فقد عقد العزم على مواجهة إيياسـو عسكريًا، وأعد العدة بجيش قوامه مائة ألف محارب من بينهم محاربين متقاعدين، وما أن وصلت هذه الأنباء إلى إيياسو حتى فرح بها أيما فرح وكأنه وجد الفرصة والحجة لمهاجمة البقية الباقية من عشـيرة طويوطومى وأعوانه حتى يقضى على آخر معقل ينافسـه، وكان إيياسو قد تخطى السـبعين من عمره آنذاك ولكنه انتفض كمحارب صغير السن شاهرا حسامه وآمرا قواته بالخروج لحرب عشيرة طويوطومى، وكان قوام جيشه الذى أعده من أجل هذه المعركة يتجاوز المائتى ألف جندى .

ومن أكتوبر ١٦١٤م إلى ديسـمبر من نفس العام قام إيياسو بمهاجمة قلعة أوسـاكا الحصينة ولكنه لم يستطع اختراقها، ثم سرعان ما توصل مع الجانـب الآخر إلى هدنة مؤقتة، وهذه الفترة تعرف فى تاريخ عصر إيدو بمعسكر أوساكا الشتائى، وفى هذه المرة أيضا استخدم إيياسو مكره المعروف واسـتطاع حبك معاهدة سـلام كل موادهـا لصالحه وأصبحت كأنها شـرك للمعسـكر المضاد، بل إنها لم تخرج عن كونها معاهدة غير مكتوبة ولم يوقع عليها الطرفان وبسبب هذه الخديعة من إيياسو تقلص وجود معسـكر طويوطومى فى البرج الرئيسـى لقلعة أوساكا مما أدى إلى ضعف موقفهم؛ وزاد من غضب قواد معسـكر أوسـاكا الأمر الصادر من إيياسو بطرد أهم شخصيات هذا المعسكر من قلعة أوساكا.

وبعد عدة شهور قام جيش الباكفو وقوامه ثلاثين ألف جندى بالهجوم على قلعة أوساكا وذلك فى شهر مايو ١٦١٥م، وبالفعل تم سقوط قلعة أوساكا تماما وانتحر هيدى يورى ابن طويوطومى وكذلك والدته، وتم إنقاذ الأميرة سنهيمى Senhime (١٥٩٧م - ١٦٦٦م) فى آخر لحظة قبل أن تحترق، وهذه الأميره هى زوجة هيديورى المنتحر وحفيدة إييياسو فى ذات الوقت وكانت قد تزوجت من هيديورى زواجا سياسيا ولم تكن تجاوزت السابعة من عمرها ، والشيء المؤسف أن حريق قلعة أوساكا لم يتم بيد إييياسو وجنده بل تم عن طريق الخائنين من معسكر هيديورى وكان ذلك فى الثامن من مايو، وبموت هيديورى ووالدته تم إعلان نهاية عشيرة طويوطومى وهذا ما كان يريده إييياسو الماكر ولتخلو ساحة حكم اليابان له ولأولاده وأحفاده من بعده لمدة تزيد عن ٢٦٠ عامًا.

على أية حال انتهى معسكر أوساكا الصيفى نهاية مأساوية بالنسبة لعشيرة طويوطومى، ودانت البلاد بالطاعة التامة لإييياسو وأبنائه، وسرعان ما أصدرت الباكفو فى شهرى يونيو ويوليو عدة فرمانات من شأنها إحكام السيطرة على الدايميوات والنبلاء على السواء، بل إن هذه الفرامانات جاءت للسيطرة على الإمبراطور ذاته، وبذلك تم إحكام سيطرة الباكفو على كل القوى التى يمكنها معارضتها.

وبانتهاء أحداث معسكر أوساكا الصيفى واختفاء أى مظاهر لمعارضة الباكفو تم تغيير اسم التقويم فى اليابان من كيتشو إلى جننا Genna وإضافة كلمة إنبو Enbu والكلمة الأولى تعنى السلام والثانية تعنى ترك السلاح أى تم الابتعاد عن استخدام السلاح وانتهاء الحروب (Genna Enbu) لتبدأ فترة طويلة من السلام فى كنف عشيرة طوكوجاوا كما أسلفنا القول.

وفى أبريل من العام الثانى من جننا (١٦١٦م) ترك إييياسو هذا العالم بعد رحلة طويلة من الكفاح حيث وصل إلى أعلى مرتبة فى اليابان تاركًا لأولاده وأحفاده دولة قوية متماسكة وموحدة، وكان سبب الموت سرطان بالمعدة، وتم دفنه فى جبل كونو Kunozan بمحافظة شيزو أوكا، وفى العام التالى (١٦١٧م) تم نقل جثمانه إلى جبل نيكّو Nikkozan وأنعم عليه الإمبراطور بلقب رفيع يجعله أقرب للآلهه وتم بناء معبد طوشوجو Tōshōgu من أجل عبادته وتبجيله، وما زال هذا المعبد الرائع الزخارف يعج بالزوار والسياح إلى يومنا هذا، ويعتقد الكثير من اليابانيين أن وجود إييياسو فى هذا المعبد الرهيب جعله وكأنه إله ظل يحرس حكومة الباكفو وما حولها ويعطيها من بركته وحمايته ما يكفل لها الأمان طوال ما يقرب من ثلاثمائة عام.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المعبد الفخيم تم بناؤه فى عهد الشوجون الثالث أييى متسو Iemitsu (١٦٠٤م – ١٦٥١م) والذى تولى منصب الشوجونية فى عام ١٦٠٣م، وتكلف بناؤه ٥٦٨م ألف ريو من الذهب.

٣ - قلعة إيدو ومركزية الباكفو :

بدأت الحكومة العسكرية فى إيدو بداية قوية جدًا ربما تذكرنا بمركزية حكومة الدولة القديمة فى مصر الفرعونية ومدى قوتها حتى إنها استطاعت فى وقت مبكر من التاريخ بناء أهرامات عظيمة ما زالت تبهر الملايين.

ونحن هنا لسنا بصدد شرح كيف بنيت هذه الأهرامات إلا أننا نذكر

فقط أن الأوامر صدرت من الفرعون إلى كل حكام الأقاليم لكى يشتركوا ويتعاونوا مع الدولة فى بناء هذه الأهرامات وكأنها مشروع قومى لابد للجميع الإسهام فيه، كذلك كان الحال عند بناء قلعة إيدو والتى تكون فى معظمها القصر الإمبراطورى الحالى فى قلب العاصمة طوكيو.

تم البدء فى إنشاء قلعة إيدو فى عام ١٦٠٤م بإدارة وتصميم المحارب طودو تاكا طورا Todo Takatora (١٥٥٦م – ١٦٣٠م) وقد اشتهر هذا المحارب بإسهاماته العديدة فى كثير من الإنشاءات الخاصة بالدولة وقد تعاون معه الكثير من الدايميوات خاصة دايميوات غرب اليابان الذين بلغ عددهم سبعين دايميو.

وقبل بدء الإنشاء كان على المسئولين أن يحفروا المجارى المائية اللازمة لنقل الأحجار والتى تم إحضار معظمها من مدينة ساجامى فى محافظة كاناجاوا ومدينة إيزو فى محافظة شيزوأوكا، وقامت أكثر من ثلاثمائة سفينة تابعة للعديد من الدايميوات بنقل هذه الأحجار إلى خليج إيدو. وقد بلغت مساحة القلعة ومبانيها والأراضى التابعة لها ٢ مليون و٦٤٤ ألف متر مربع، وهى بذلك كانت تعد أكبر قلعة فى اليابان وتعادل ضعف قلعة أوساكا فى المساحة .

ولم تستخدم قلعة أيدو كحصن حصين للشوجون وعائلته وأعوانه فقط، بل إنها ضمت أيضا مؤسسات وهيئات حكومية يقوم بالعمل بها الكثير من موظفى الحكومة وغيرهم من العاملين. وحول القلعة انتشرت قصور وبيوت الدايميوات والأغنياء.

وقد مورست سياسة الدولة من قلعة أيدو فقد كان بها مقرات ما يوازى الآن رئيس الوزراء ورئيس المحكمة العليا ومحافظ العاصمة وغيرها من الوظائف الهامة فى البلاد.

وبسبب ضخامة قلعة إيدو وملحقاتها من مبانى وخنادق وممرات داخلية وخارجية، فلم يكتمل البناء تماما إلا فى عام ١٦٣٦م، وذلك فى عهد الشوجون الثالث إيميتسو.

وبالطبع لم يكن التغيير الذى حدث فى بداية عصر إيدو فى شكل القلاع وضخامتها فقط، فقد كان التغيير فى شكل المجتمع اليابانى ووضع الإنسان فيه أكبر وأوسع بكثير من ذلك، فقد عمل طوكوجاوا إييياسو على إحداث هذا التغيير بالتشاور مع عدد من الشخصيات الهامة فى أوائل هذا العصر، ومن أشهرهم هوندا ماسازومى Honda Masazumi (١٥٦٥م – ١٦٣٧م) وكان يعد من القادة المقربين لإييياسو، والراهب إيشين صودن Ishin Sūden (١٥٦٩م – ١٦٣٣م) والتاجر الغنى تشايا شيروجيرو Chaya Shirōjirō الذى كان تاجرًا وسياسيًا فى ذات الوقت. وكان معهم أيضًا الرحالة الإنجليزى أدامز William Adams (١٥٦٤م – ١٦٢٠م) والذى يعتبر أول إنجليزى تطأ قدمه اليابان واستطاع التقرب من إييياسو الذى أقطعه منطقة ميئورا هيمى فى مقاطعة ساجامى (محافظة كاناجاوا).

هؤلاء جميعًا وغيرهم اتفقوا على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات رئيسية على أساس طبقى مقلدين فى ذلك المجتمع الطبقى الموجود فى إنجلترا آنذاك، وجاء على رأس هذا المجتمع المحاربين (Shi) ثم المزارعين (Nō) ثم الحرفيين والصناع (Kō) ثم يأتى فى ذيل الترتيب التجار (Shō)، ولذلك سمى هذا النظام بـ شينوكوشو Shinōkōshō الذى ظل مطبقًا طوال عصر أيدو. وعليه فإنه إذا تحددت طبقة الشخص الذى ينتمى إليها فهى بالتالى تورث لأبنائه وأحفاده من بعده

ولا يستطيع تغييرها وفق إرادته. وتحت هذه الطبقات الأربع تأتى الطبقات الدنيا فى المجتمع مثل الجزارين والدباغين والذين يقومون بتنفيذ أحكام الإعدام فى المجرمين بعد ذلك وهؤلاء تم تجاهلهم فى النظام الطبقى المذكور.

ثم أتى دور الدايميوات فى التغيير فقامت مجموعة المستشارين بقيادة إيياسو إلى تقسيم الدايميوات إلى ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى وهى المجموعة التى تمت بصلة قرابة لإيياسو وتم تولية هذه المجموعة المقاطعات المتميزة مثل أوارى (محافظة إيتشى) وكيى Kii (محافظة واكاياما) وميتو (محافظة إيباراكى) وهذه المجموعة أطلق عليها شينبان Shinpan أى مقاطعات الأقارب ثم بعد ذلك تأتى فى المرتبة التالية مجموعة فودای Fudai وهم هؤلاء الدايميوات الذين ناصروا إيياسو فى حروبه ضد أعدائه ومنافسيه من أجل تحقيق الوحدة الشاملة وتكوين حكومة الباكفو وبعد ذلك جاءت مجموعة توزاما Tozama وهم هؤلاء الدايموات الذين انضموا لمعسكر إيياسو ولكن بعد انتصاره فى موقعة سيكى جاهارا فى عام ١٦٠٠م، وبالطبع لم يكن حظ النوع الثالث من الدايميوات مثل النوعين السابقين يتمتع بمقاطعات مميزة أو وضع جيد فى حكومة الباكفو نظرا لأنهم خضعوا لإيياسو بعد انتصاره ولم يعاونوه فى حروبه ولذلك فقد تم توليتهم على مقاطعات بعيدة عن عاصمة الباكفو فى أيدو كذلك لم يلعب التوزاما دايميو أدوارا هامة فى الباكفو مهما بلغت درجة حجم وقوة المقاطعة التى تولوا إدارتها.

ثم واصل ابن إيياسو الثالث وهو هيدى تادا Hide tada (١٥٧٩م – ١٦٣٢م) ما بدأه والده من نشاط فى إحداث تغييرات

جوهريـة فى حياة الإنسـان اليابانى اجتماعيا وسياسـيا. وقد تولى هذا الشـوجون الحكم فى أثناء حياة أبيه. وقد عمل هيدى تادا على حماية الباكفو وإصدار القوانين التى تحكم السيطرة على المحاربين والدايميوات.

ففـى عـام ١٦١٥م جمع هيدى تـادا جميع الدايميـوات فى قلعة فوشـيمى القريبـة من العاصمـة كيوطـو. وألقى عليهم مـا أطلق عليه قواعد المحاربـين Bukeshohatto لأنه من المفروض أن يكون الدايميو (حاكم الإقليـم) محاربًا فى الأصل. وهـذه القواعد وبالأحرى القيود كان عددها ثلاث عشـرة ، وكلها تصب فى كيفية التحكم فى الدايميوات، وكان أهم هذه القيود هى منع الدايميو من إنشـاء القلاع أو إصلاحها إلا بأمر من الشـوجون، وذلك حتى لا يسـتطيع الدايميو أن يستخدم هذه القلاع القوية للوقوف فى وجه الشـوجون، كذلك لم يكن يسمح للدايميو بالـزواج إلا بأمر مـن الباكفو أيضًا، وذلـك لأن الباكفو كانت تعتقد أو تخشى من أن بعض الزيجات قد تجلب عليها المتاعب لأن عن طريقها يمكن تعضيد موقف الدايميو سياسـيا وعسـكريا وكذلـك اقتصاديا مما يجعله يسـتطيع مقاومتها، وبالطبع كان هنـاك العديد من الدايميوات الذين يخرقون هذه القواعد ويقدمون على الزواج أو بناء القلاع وإصلاحها أو غير ذلك من الأشـياء التى منعتها الباكفو بدون إذنها. ولذلك عملت الباكفو على التلصص والتجسـس على تحركات ونشـاط الدايميوات فى مختلف المقاطعات، وجمعت المعلومات عن طريق جواسيسـها.

فمثـلاً فى عـام ١٦٢٢م بعث الشـوجون هيدى تـادا ببصاص إلى قلعـة أوتسـونوميا فى محافظة توتشـيجى، وهذه القلعـة كانت معقل الدايميو هوندا ماسازومى والذى كان يعد من القادة المقربين من الشوجون

الأول إيياسو، وبرغم ذلك فقد شك هيدى تادا فى هذا الدايميو بأنه يحيك مؤامرة ضد الباكفو لأنه أعد سقوفًا حديدية من نوع خاص يستطيع من خلال إسقاطها أن يقتل أعداءه بسهولة. وقد نقل المعاونون الجدد للشوجون هيدى تادا أن هوندا يخطط من أجل اغتياله فى طريق عودته من زيارة قبر والده إيياسو فى نيكو عن طريق هذا السقف المتحرك، فغضب الشوجون غضبًا شديدا وأصدر أوامره على الفور بمصادرة أموال ومخصصات هوندا، وكذلك خلع ألقابه بل وإلحاقه بعائلة ساتاكى Satake فى مقاطعة دوا (محافظتى ياماجاتا وأكيتا) الواقعة فى أقصى شمال جزيرة هونشو. ومن الجدير بالذكر أن هذه العشيرة من العشائر التى هُزمت فى موقعة سيكى جاهارا ولذلك نالت العقاب من الباكفو. وبذلك الإجراء يكون مصير هوندا قد أصابه الكثير من التدنى، والحقيقة أن ما حدث لهوندا لم يكن سوى مؤامرة من معسكر المعاونين الجدد للشوجون بزعامة دوى توشيكاتسو Doi Toshikatsu (١٥٧٣م - ١٦٤٤م) وساكاى تادايو Sakai Todayo وذلك من أجل إسقاط هوندا والاستيلاء على المكانة الرفيعة التى كان يحظى بها فى الباكفو منذ أيام إيياسو. وهكذا تحولت القوى من المعسكر القديم فى الباكفو إلى قوى جديدة.

. وحادثة إقصاء المحارب الشهير فوكوشيما ماسانورى Fuku Shima Masanori (١٥٦١م - ١٦٢٤م) عن حكمه لمقاطعة هيروشيما بسبب إقدامه على إصلاح وترميم قلعة هيروشيما دون الحصول على إذن مسبق من الباكفو هى من أشهر حوادث عقاب الدايميوات لخروجهم عن تعليمات الباكفو. وهذا الدايميو يعد من الدايميوات الأغنياء جدا فقد كانت مخصصاته تبلغ نصف مليون جوكو من الأرز.

وبرغم ذلك فقد حرم من هذه المخصصات ثم أبعد إلى منطقة أخرى بعيدة.

ومن أشهر أمثلة عقاب الدايميوات بسبب زواجهم بدون إذن الباكفو ذلك عندما تزوج دايميو أوداوارا (مدينة تقع جنوب غرب محافظة كاناجاوا)، فقد تمت مصادرة أموال هذا الدايميو بسبب إقدامه على الزواج بدون تصريح من الباكفو.

وفى عام ١٦٢٣م تنازل الشوجون هيدى تادا عن منصب الشوجونية لابنه الثانى إييميتسو Iemitsu (١٦٠٤م – ١٦٥١م)، وبدلا من ذلك تولى الوالد منصب الشوجون المتقاعد المستشار الأكبر (Ogosho) وذلك بعد أن أرسى قواعد الشوجونية وأصدر عدة فرمانات تحد من سطوة المحاربين والدايميوات كما أسلفنا الذكر.

تولى إيميتسو الشوجونية لمدة ٢٨ عامًا (١٦٢٣م – ١٦٥١م) أى منذ تنازل له والده عن هذا المنصب الرفيع وحتى وفاته فى عام ١٦٥١م ويعد عهد إيميتسو من أهم عهود عصر طوكوجاوا الطويل، فقد قام هذا الشوجون بإصدار عدة فرمانات عُدت من أهم الفرمانات والقوانين التى أسهمت إلى حد كبير فى إرساء قواعد عصر طوكوجاوا وإحداث انتعاشة ونهضة قويتين. ولكن كانت الانطلاقة الحقيقية لإييميتسو من أجل تنفيذ سياسته القوية فى القبض على مقاليد الحكم وإصدار الفرمانات القوية، بعد أن توفى والده هيدى تادا فى عام ١٦٣٢م، حيث كان الأخير بحكم المنصب القوى الذى كان يتولاه حتى بعد تركه الشوجونية لا يزال له تأثير على اتخاذ القرارات فى حكومة الباكفو، ذلك برغم أن الشوجون الثالث إييميتسو تمتع بشخصية قوية واعتبر نفسه مولودا ليكون شوجونا.

انصب اهتمام إييميتسو أول ما انصب على التوزاما دايميو، وكان هذا الاهتمام بسبب الوضع المتميز الذى كان هؤلاء الدايميوات يتمتعون به منذ عهد نوبوناجا وهيديوشى، ولذلك نجد الكثير منهم يمتلكون المخصصات والممتلكات ما لم يكن يمتلكه الفودای دايميو، وذلك رغم أن مقاطعاتهم كانت فى الغالب بعيدة عن عاصمة الباكفو أيدو، وقد عمل إييميتسو على ألا يكون وضع هؤلاء الدايميوات متميزا عن الفوادى دايميو، حتى إنه توعدهم بمحاربتهم بمجرد توليته الشوجونية ولكنه أعطى لنفسه فسحة من الوقت مدتها ثلاث سنوات كى يعد نفسه خلالها لحربهم لأنه لم يكن لديه تجربة الحرب قبل ذلك، ولكنه على أية حال كان مصمما على مقاومة غرور التوزاما دايميو، وبمثل هذه الثقة فى النفس بدأ إييميتسو عهده متخذا عدة خطوات هامة من أجل تعضيد نظام طوكوجاوا الإقطاعى.

كان أول من تلقى نيران صرامة وغضب إييميتسو هو التوزاما دايميو كاطوتادا هيرو Katō Tadahiro (١٦٠١م – ١٦٥٣م) وكان من الدايميوات الأقوياء ذوى النفوذ، ولكن برغم ذلك فقد أبعده عن مقر حكمة ومركز سطوته فى مقاطعة هيجو Higo (محافظة كوماموطو الحالية) والتى تقع فى جزيرة كيوشو فى أقصى جنوب اليابان إلى منطقة شونای الواقعة فى مقاطعة دوا Dewa (محافظة ياماجاتا الحالية) فى أقصى شمال جزيرة هونشو أى أنها تبعد مئات الكيلومترات عن مقاطعته الأصلية وهذا بالطبع عقاب رادع لمثل هذا الدايميو القوى، ولم يقتصر هنا العقاب على تاداهيرو فقط بل نال آخرون نفس العقاب، فقد وصل عدد الدايميو من فئة التوزاما الذين تم عقابهم إما بطردهم من مناصبهم

أو بمصادرة مخصصاتهم إلى تسع وعشرين دايميو، أما الفودای دايميو الذين تم عقابهم بنفس الطريقة فقد وصل عددهم تسعة عشر دايميو فى عهد إييميتسو.

وخلال عهد إييميتسو تواصلت عملية تنظيم الجيش وتقويته ولذلك فقد ألقيت أعباء عسكرية متزايدة على كل دايميوات اليابان سواء كانوا فودای أو توزاما، واستطاع إييميتسو فى عام ١٦٣٤م أن يذهب إلى عاصمة البلاط الإمبراطورى فى كيوطو مصطحبًا ما يزيد على ثلاثين ألف جندى، وهو فى ذلك كان يريد أن يظهر قوة الدايميو العسكرية، ولم يكن أمام الدايميو وفرق الهاطاموتو (Hatamoto) وهؤلاء هم الفرق الحامية المباشرة للشوجون، وتأتى تسميتهم من أنهم المدافعون عن المعسكر الرئيسى للشوجون الذى يرفع أعلام الشوجونية، ولم يكن أمام الدايميوات أو فرق الهاطاموتو أو غيرهم من الفرق التى تليهم فى المرتبة سوى إطاعة أمر الشوجون للخروج للحرب أو التدريبات حتى لا تُنتقص مخصصاتهم أو يُحرموا منها، ومن الأمثلة الشهيرة على معاونة الدايميوات للشوجون فى أعمال الإنشاء عندما أرسل كاطوتادا هيرو حاكم هيجو – وذلك قبل استبعاده – بنحو خمسة آلاف من العمال من أجل الاشتراك فى إنشاء البرج الرئيسى لقلعة أيدو وذلك فى عام ١٦٢٢م.

وتتوالى إجراءات وفرمانات إييميتسو من أجل إظهار قوة الباكفو وإخضاعه للدايميوات ومختلف أنواع فرق المحاربين، فيصدر فى عام ١٦٣٥م بما يمكن تسميته بقانون المحاربين المعدل. وكان الشوجون السابق له هيدى تادا قد أصدر القانون الثانى والذى كان يتكون من ثلاث عشرة مادة، ولكن إييميتسو أصدر فرمانه فى تسع عشرة مادة وكانت

أهم وأشـــهر هذه المواد هى ضرورة دوام الدايميو وحاشـــيته عاما بعد عام فيما عرف بـ «Sankin Kōtai» كذلك ألزمت هذه المادة الدايميو أن يقيم فى أيدو عاصمة الشوجونية بيوتا لزوجته وأولاده يمكثون فيها كرهائن، وهذا يعنى أن نصف دايميوات اليابان كان عليهم أن يترددوا فى أبريل من كل عام على أيدو، أما النصف الآخر فكان يمكث فى مقاطعته ينتظر دوره للاشتراك فى هذه الطقوس التى كانت تكلف الدايميو أموالاً طائلة حيـــث كان موكبه لا يضم فى أقل تقدير أقـــل من مائة تابع ويصل فى أحوال كثيرة إلى عشـــرات المئات. وعلـــى الرغم من أن هذا الإجراء كان بمثابـــة عبء اقتصـــادى ثقيل على الدايميو ومقاطعتـــه إلا أنه فى نفس الوقـــت أوجد حالة من الرخـــاء الاقتصادى والاجتماعـــى الكبيرين فى العاصمـــة إيدو نظـــرًا لتجمع أعداد كبيرة من الوافدين من خارج إيدو إلى جانب البيوت والقصور الكثيرة التى كان على الدايميوات أن ينشـــئوها من أجل ســـكنى أســـرهم وأتباعهم، كذلك كان لطول المسافة من مقاطعة الدايميـــو إلى العاصمـــة إيدو ما يتبعه من إنشـــاء محطات اســـتراحة فى الطريق بـــين العاصمة ومختلف المقاطعات، وهذا كان يعرف بالمحطات الثلاث والخمسين «Gojūsantsugi» والتى تناول أحوالها كتاب كثيرون فى أعمال أدبية مختلفة ممتعة.

وكان مـــن ضمن الأعمال التى يقوم بها الدايميوات الحاجين إلى إيدو كنوع من أنواع الخدمة العســـكرية حراســـة الأبـــواب الكثيرة لقلعة إيدو العظيمة وكذلك التحرك لإطفاء النيران إذا ما اشتعلت فى ركن من أركان القلعـــة وغيره من الأعمال الخدمية، وهكذا تأكدت علاقة التبعية التامة للدايميوات للشـــوجون الأول إيياسو وحتى الشوجون الثالث إييميتسو،

أو ما يمكن القول بتبعية المقاطعات (Han) للحكومة العسكرية فى إيدو (Bakufu) .

ومن ضمن المواد التى ضمها فرمان إييميتسو لتقييد قوى الدايميوات والمحاربين هو منعهم من تشييد السفن الكبيرة الحجم وكذلك عدم الزواج بدون تصريح، وعدم بناء أو إصلاح القلاع دون إذن كما فى فرمان هيدى تادا. وقد تغير مضمون هذه الفرمانات قليلاً مع تغير الشوجون، إلى أن أتى الشوجون الخامس تسونايوشى Tsunayoshi (١٦٤٦م – ١٧٠٩م) – وهو الابن الرابع لإييميتسو – فقام بتوحيد كل الفرمانات السابقة التى تحد من قدرات الدايميوات والمحاربين وأضاف إليهم كذلك اتباع عشيرة طوكوجاوا أيضا، وبعد ذلك لم يتوقف الأمر على الشوجون فقط بل إن الدايميوات قلدوه أيضًا فى ذلك، وأصدر العديد منهم قوانين وفرمانات للتحكم فى أتباعهم.

ولم يسلم البلاط الإمبراطورى والنبلاء ورهبان المعابد من سطوة الشوجون، فقد أصدر قانونًا خاصًا عام ١٦١٥م أى عندما كان إييياسو لم يزل حيا وله تأثير على اتخاذ القرار فى حكومة الباكفو، وهذا القانون يرغم الإمبراطور على وضع كل جهوده من أجل الاستزادة من العلم ونظم الشعر ويبعده عن حلبة السياسة، وكانت تلك هى المادة الأولى من هذا الفرمان (Kinchu Narabini Kugesho hattō) أما المادة الثانية فكانت تخص النبلاء ورهبان المعابد التى حُددت مهماتهم ومخصصاتهم وحتى ملابسهم، وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بالنبلاء والمعابد، وقد تم تطبيق هذا القانون بكل الحزم والشدة فى عهد الشوجون الثالث إييميتسو، ففى عهده فقدت العديد من المعابد تلك العزب والأراضى

التـــى كانت بمثابة العمود الفقرى لاقتصادها، ومن ثم فقد فقدت الكثير من سطوتها التى اعتادت عليها، وكان من ضمن بنود هذا الفرمان إنشاء معبد رئيســـى لكل طائفـــة ويتبع هذا المعبد معابـــد أخرى صغيرة تكون تحت سيطرة ومراقبة المعبد الرئيسى وذلك حتى لا ينفرط عقدها.

٤- بدايات الباكفو والعلاقة مع الخارج :

فـــى أبريل من عام ١٦٠٠م حضرت إلى اليابان أول ســـفينة هولندية وكان ظهورهـــا فى مقاطعة بونجو (محافظة أويتـــا الحالية). وكان على ظهر هذه السفينة بحار إنجليزى يدعى وليام آدامز وهو ذلك الرجل الذى اتخذه فيما بعد إييياســـو مستشـــارًا له والذى تحدثنا عنه آنفًا فى معرض حديثنا عن إقرار النظام الاجتماعى الجديد فى اليابان (Shinōkōshō) وكذلك استعان إييياسو بزميل آدامز الهولندى يان يوستن Jan Joosten (١٥٥٦م – ١٦٢٣م) وذلـــك من أجـــل التعرف إلى أحوال العالم وأوضاع النظم الاجتماعية والسياسية فى بلادهم.

على أية حال عندما علم إييياســـو أن إنجلـــتر وهولندا لا يهمهما من المجيء إلى اليابان ســـوى التجارة ولا يريدان نشر الديانة المسيحية سره ذلك أيما ســـرور، ورحب بوليـــام آدامز وزميله، ثم أمـــر بافتتاح وكالة تجاريـــة لهولندا فى مدينة هيرادو (محافظة ناجاســـاكى) عام ١٦٠٩م، وفـــى عام ١٦١٣م وعلى أثر وســـاطة من وليام آدامز بين إييياســـو وملك إنجلترا جيمس الأول تم الســـماح لإنجلترا بالتبـــادل التجارى فى ميناء هيرادو أيضا.

وفى الحقيقة كان إييياســـو فى مســـلكه مع الأجانب مختلفًا كثيرًا عن سلفه هيديوشى، فقد كانت سياسته الخارجية تعتمد على الترحيب

بالـدول الأجنبية، وكان يهدف من وراء ذلك إنعاش التجارة الخارجية حتى يستطيع إنعاش الاقتصاد لحكومة الباكفو فى إيدو وحاول إييياسو أيضًا إصلاح ما أفسـده سلفه فى علاقة اليابان بجارتها كوريا. فجاءت لأول مرة إلى إيدو بعثة دبلوماسـية كورية فى عام ١٦٠٧م وتم عقد صلح بين اليابان وكوريا، وكان هدف إييياسـو من وراء الصلح مع كوريا هو أن تتوسط الأخيرة بينه وبين الصين لتصلح بين الطرفين ، ولكن هذا المسعى لم ينجح، ومن ثم حاول إييياسو أن يجعل ريوكيو (أوكيناوا) التى كانت تخضع ولو من الناحية الشـكلية للصـين ، أن تقوم بهذا الدور عوضا عن كوريـا ، ولكـن ريوكيو لم تعطى آذانـا صاغية له . وهنا أوعز إييياسـو إلى مقاطعة ساتاسـوما (محافظة كاجوشـيما الحالية) لأن تهاجم ريوكيو وتجعلها تخضع لإرادة الباكفو ولكن حاكم ساتسـوما شيماظو إيبى هيسا Shimazu Iehisa (١٥٧٦م – ١٦٣٨م) أعاد العلاقة بين الصين وريوكيو كما كانت فى السـابق من أجل استعادة التجارة الخارجية مع الاثنين، وبالفعل اسـتطاعت عشيرة شيماظو الحصول على أرباح كبيرة عن طريق التجارة مع الصين وريوكيو.

وهكذا عجز إييياسـو عن اسـتعادة العلاقة الودية مع الصين، ولكن برغم ذلك كان هناك ترحيب من جانب اليابان بالسفن التجارية الصينية التـى ازدادت أعدادها عاما بعد عـام، وزاد كذلك عدد الصينيين الذين استوطنوا مدينة ناجاساكى اليابانية.

وإلى جانب ذلك بعث إييياسـو برسـائل عديدة إلى دول جنوب شرق آسـيا مثل سيام (تايوان) والهند الصينية وكمبوديا وشبه جزيرة مالاوى وغيرهـا مـن الدول، مبديا رغبـة أكيدة فى إقامة علاقـات ودية معها

جميعا، وبالفعل جابت الكثير من السفن التجارية اليابانية هذه الدول، وعليه فقد تعمقت العلاقات بين هذه الدول وبين اليابان وحصلت الأخيرة على مكاسب كبيرة من خلال علاقاتها التجارية مع هذه الدول. وكان النصيب الأكبر من التجارة الخارجية اليابانية من نصيب كوريا، فقد استوردت اليابان منها الأرز والقطن والجنسنج والجلود والكتب وغيرها، وفى المقابل صدرت اليابان لكوريا المعادن والبويات والبخور وغيرها.

ونظرًا لتوسع التجارة الخارجية اليابانية فى بداية عصر الطوكوجاوا فقد عملت حكومة الباكفو على تنظيم والتحكم فى هذه التجارة، فكان لابد من إصدار تصاريح خاصة سميت بتصاريح الأختام الحمراء(shuinjo) ، وهى تلك الأختام الخاصة بشجونية إيدو وكانت تُعطى لأشخاص بعينهم لممارسة التجارة الخارجية مع الدول الأجنبية، وقد أصدرت حكومة الباكفو أكثر من ٣٥٠ تصريحا من هذا النوع من التصاريح منذ عام ١٦٠٤م حتى عام ١٦٣٥م ، ولم تكن هذه التصاريح لطبقة معينة دون غيرها من الطبقات، فقد حصل عليها ما يقرب من ١٠٥ من الدايميوات وكذلك حصل عليها بعض التجار، ومن أشهر الدايميوات الذين حصلوا على ختم الشوجونية الأحمر حاكم ساتسوما الذى استرجع جزيرة ريوكيو (أوكيناوا) من تحت السيطرة الصينية والدايميو ماتسو أورا شيجينوبو Matsuura Shige Nobu (١٥٤٩م – ١٦١٤م) وأريما هارونوبو Arima Harunobu (١٥٦٧م – ١٦١٢م) وهو دايميو مسيحى انتحر فى النهاية بطريقة الهاراكيرى، ومن التجار اشتهر تاجر من مدينة ناجاساكى يدعى سوى تسوجو هيظو Suetsugu Heizo (١٥٤٦م – ١٦٣٠م) الذى كان له تجارة مع فيتنام وسيام، وهناك تاجر آخر من مدينة أوساكا يدعى

سوى يوشيماجو زائيون Sueyoshimago Zaeon (١٥٨٨م - ١٦٣٩م) والتاجر تشاياشيرو جيرو Chayashuro Jiro (١٥٤٢م - ١٥٩٦م) الذى كان من المقربين من الشوجون الأول طوكوجاوا إيياسو وكان من مدينة كيوطو عاصمة البلاط الإمبراطورى آنذاك.

وكذلك اشتهر من نفس المدينة التاجر سومينوكورا ريو آى Sumino Kura Ryoi (١٥٥٤م - ١٦١٤م)، ومن مدينة إيسى Ise اشتهر التاجر كادويا شيتشى روبنى Kadoya Shichiroboni (١٦١٠م - ١٦٧٢م)، ومن مدينة ساكاى كان هناك التاجر نایاسوكى زائيمون Nayasuke Zaemon (ميلاده ووفاته مجهولان) وقد نافست سفن هؤلاء التجار اليابانيين السفن التجارية الهولندية والصينية والبرتغالية، وكان من أهم المواد والبضائع التى حملتها من اليابان إلى الدول الأخرى الفضة والنحاس والحديد والسيوف والأوانى بأنواعها والمقصات والمراوح اليابانية التقليدية، وكذلك الملابس والكافور وعلى الأخص كان للفضة النصيب الأكبر حيث مثلت حوالى ثلث كمية الفضة المصدرة على مستوى العالم آنذاك.

وفى خلال ثلاثين عامًا من التجارة الحرة المزدهرة سافر ما يزيد على مائة ألف ياباني إلى مختلف دول العالم، ومن بين هؤلاء استوطن حوالى عشرة آلاف ياباني مختلف المناطق فى جنوب شرق آسيا. بل وقام هؤلاء اليابانيون بإنشاء ما أطلق عليه المدن اليابانية فى هذه الدول، وقد تمتعت بعض هذه المدن بشكل من أشكال الحكم الذاتى، وكان من أهم دول جنوب شرق آسيا التى استوطنها التجار اليابانيون لوسون (الفلبين) وسيام (تايوان) وبورما وفيتنام وكمبوديا وغيرها.

ولم يكـن التجار هم فقط من اسـتوطنوا دول جنوب شـرق آسـيا وأقاموا فى المدن اليابانية السالف ذكرها. فقد ذهب إلى هناك أيضًا عدد غـير قليل من النجارين والحدادين والنقاشـين اليابانيين وغير ذلك من الصنـاع والعمال اليابانيين المهرة، وإلى جانب هؤلاء العمال المهرة ذهب للحيـاة فى هـذه البلاد عدد غير قليل من المحاربين الذين قاوموا عائلة طوكوجاوا، وعليه لم يستطيعوا العيش فى اليابان. كذلك هرب إلى هذه المدن الكثير من المسـيحيين الذين لاقوا الأهوال على يد حكومة الباكفو بسـبب إيمانهم بالمسيحية، وسوف يأتى الحديث عن هؤلاء المسيحيين اليابانيين بالتفصيل فيما بعد.

كذلك عاش فى هذه المدن الكثير من هؤلاء اليابانيين الذين خدموا المسـتوطنين اليابانيين الذين عدوا بالآلاف وكذلك الذين خدموا السـفن التجارية اليابانية التـى كانت تذهب للتجارة مع مختلف بلاد جنوب شـرق آسـيا، وكذلك هؤلاء الذين عملوا فى الوكالات التجارية اليابانية إلى جانب الجنود والبحارة .

ومـن بـين هؤلاء الذين عاشـوا فى المدن اليابانية التى انتشـرت خارج اليابان – اشـتهر اليابانيون فى المدن اليابانية والتى كانت مقامة فى مملكة سـيام (تايوان)، وبسبب شجاعتهم وأمانتهم تميزوا عن باقى الحـراس. ولذلـك عمل ما يقارب مـن ثمانمائة حارس مـن بين ألف وخمسـمائة مواطن يابانى هـم كل مجموع من عاش من اليابانيين الذين كانوا هناك ، عملوا كحراس للقصر الإمبراطورى لملك سيام.

وكان زعيـم اليابانيـين فـى هـذه المدينة هـو ناجاماسـا يامادا Yamada Nagumasa (؟–١٦٣٠م) الـذى سـافر إلى سـيام فـى

عـام ١٦١٢م، وقد حـاز على ثقة وحب ملك البـلاد بل وأعطاه أعلى درجة عسـكرية فى البلاد، ولكنه بعد وفاة ملك سـيام هاجر إلى الدولة المجاورة « ليجول » وأصبح زعيما هناك أيضا، واسـتطاع ناجاماسـا أن يحكم قبضته على « ليجول» ، ولكن أثناء زعامة ناجاماسـا لهذه البلاد هوجمـت من بلد مجاورة ، ولم يتوان ناجاماسـا عن الدفاع عن ليجول ووقف فى الصفوف الأولى يحارب بشـجاعة، وأصابـه فى هذه الموقعة جـرح فى قدمه، وظل الوصى على العـرش الذى أصبح ملكا للبلد التى هرب منها ناجاماسا يحيك المؤامرات من أجل قتل ناجاماسا، فبعث له بالهدايا الكثيرة، ولكنه فى الخفاء كان يدبر له مؤامرة قتله فأوعز لتابع مقرب من ناجاماسا أن يضع لاصقة طبية مسمومة على الجرح الذى كان يعانى منه ناجاماسا فى قدمه فمات مسموما فى عام ١٦٣٠م.

وهكذا نرى كيف نشـط اليابانيون فى أوائل القرن السـابع عشـر وكيف عمل إيياسو وخليفته هيدى تادا على فتح أبواب اليابان للوكالات التجاريـة الأجنبيـة، ولم يُقصر إيياسـو وهيدى تـادا تصاريح الباكفو التجارية على اليابانيين فقط بل أعطوها أيضًا لعدد من التجار الأجانب المقيمين فى اليابان مثل وليام آدمز وغيره، مما يدل على معاملة الباكفو الجيدة للأجانب خلال الثلاثين عاما الأولى من عهد الباكفو.

وإلى جانـب ذلك حاز العمال والصناع اليابانيون على سمعة عالمية لكونهم مهرة ومجتهدين فى عملهم لدرجة أن هولندا اسـتعانت بالكثير من هؤلاء الصناع والعمال المهرة من نجارين وحدادين ونقاشـين وغيرهم مـن الصناع والعمال ، وقامت من أجل ذلك بالحصول على إذن الباكفو وأرسـلتهم إلى مدينة باتابيا فى هولندا. وفى هذا الصدد نجد أن رئيس

الوكالـة التجارية الهولندية فـي مدينة هيرادو اليابانية يصرح بالآتى : «إن اليابانيـين أذكياء، وفوق ذلك فهم كعمال مجتهدون ويعملون بجد، وهم كجنود يتميزون بالشـجاعة وإلى جانب ذلك فهم لا يحصلون على رواتب عالية، هكذا أرسـل هذا المدير برسـالة إلى المسـئولين فى بلده ممتدحا اليابانيين بشـدة، ولكن لأن دوام الحال من المحال فقد تغيرت سياسـة الباكفو الانفتاحية على العالم لتبدأ سياسـة أخرى مغايرة تماما تعتمـد على إقصاء اليابان وإبعادهـا عن العالم الخارجى وعزلها وكذلك إبعـاد الأجانـب عن اليابان بما عرف بسياسـة العزلة وهذا ما سـوف نتعرف إليه من خلال السطور التالية.

٥- بداية تطبيق سياسة العزلة :

اعتاد الساسة اليابانيون منذ عهد هيديوشى أن يطلقوا دعاوى مفادها أن المبشرين بالمسيحية يأتون لليابان من أجل نشر تعاليم ديانتهم وأنهم يعملون على زيادة عدد المؤمنين بها حتى يسـتعملوهم من أجل إحداث مؤامرات ضد اليابان ويشـتركوا مع الجيوش الآتية من الدول المسـيحية حتـى يتم فى النهاية احتلال اليابان، وهـذه الدعاوى كانت على غير أساس من الصحة على الإطلاق.

ولكـن هذه الدعاوى تكررت على لسـان هولنـدا، وذلك أن كلا من البرتغال وأسبانيا يخططان لاحتلال الأراضى اليابانية، وفى هذه الأثناء كان إيياسـو قد حرم انتشار المسيحية ولكنه بسبب ولعه بأرباح التجارة مع الدول الغربية غض النظر عن هذا الانتشار الذى وصل بعدد المسيحيين اليابانيين إلى سبعمائة ألف شخص وذلك حوالى عام ١٦١٠م، وعليه فقد

أصدرت حكومة الباكفو أمرا بتحريم المسيحية فى كل أنحاء البلاد فى عام ١٦١٣م وقد طبق هذا الفرمان بحزم وشدة وتم بموجبه هدم الكثير من الكنائس والقبض على المبشرين والمؤمنين بالمسيحية وعقابهم عقابًا شديدا ورغم صدور هذا الفرمان الحازم، إلا أن هذا لم يمنع من دخول المبشرين الأجانب خلسة إلى اليابان ، ولذلك قامت حكومة الباكفو فى عام ١٦١٦م بقصر دخول السفن الأوربية التجارية على مينائى ناجاساكى وهيرادو فقط حتى يتم التحكم فى هذه السفن ومرتادبها وفى عام ١٦٢٤م تم منع دخول السفن الإسبانية إلى الموانئ اليابانية تماما.

ومع مرور الأعوام ازدادت سياسة الباكفو عنفًا وقسوة نحو المؤمنين بالمسيحية وكانت دائما ما تود لو أنها اقتلعت جذور هذا الإيمان تماما من قلوب المؤمنين به. فابتدعت أساليب قاسية من التعذيب حتى تجعل هؤلاء المؤمنين يرجعون عن إيمانهم، فكانت تربطهم إلى الأعمدة وتحرقهم أحياء، وبرغم قسوة هذه الإجراءات لم ينقطع قدوم المبشرين سرا من مانيلا وماكاو وغيرهما من البلاد لنشر هذا الدين.

وفى عام ١٦٢٢م انتهزت حكومة الباكفو فرصة تنازع وتنافس الوكالتين التجاريتين التابعتين لكل من إنجلترا وهولندا فى ميناء هيرادو وذلك من أجل الحصول على الأرباح التجارية وامتيازاتها، وقامت بغلقها وكانت حجتها فى ذلك أنه بذلك الصراع بين الوكالتين فإنه يصبح من المستحيل ممارسة الأعمال التجارية، وفى العام التالى تم منع السفن التجارية اليابانية من الإبحار إلى مانيلا وذلك عندما لم تحقق سياسة القمع نحو المؤمنين بالمسيحية ونحو المبشرين أية نتائج ملموسة ، وبرغم ذلك لم يقل عدد المؤمنين بها وكذلك لم ينقطع عبور المبشرين

من مانيلا إلى اليابان، وعندما أرسل زعيم مانيلا فى عام ١٦٢٤م رسولا لليابان راجيا استعادة التجارة معها ، تم طرد هذا المبعوث بكل البرود من قبل الباكفو.

وهكذا تعددت الأوامر الصادرة من الباكفو من أجل تقليل وتقييد حركة التعامل التجارى مع الدول الأجنبية وكذلك العلاقات معها بشكل عام حتى تم إصدار قرار الباكفو بمنع السفن الأخرى غير سفن التصاريح الحمراء من الإبحار إلى خارج اليابان وذلك فى عام ١٦٣٣م، وفى عام ١٦٣٥م صدر قرار الباكفو بمنع اليابانيين الذين كانوا يعيشون بالدول الأجنبية من العودة لليابان، وأن يتم إعدام من يخالف هذا الأمر، ثم اتجهت الباكفو لتطبيق هذه الأوامر حتى وصل الأمر إلى منع اليابانيين من السفر إلى الخارج أو العودة إليها تحت أى ظرف من الظروف، وهكذا تم تدمير حركة التجارة الخارجية التى كان عمادها سفن التصاريح الحمراء التى شهدت ازدهارا كبيرا لعدة سنوات، وهكذا تم البدء فى تنفيذ سياسة العزل.

ولكن ما هى الأسباب التى جعلت حكومة الباكفو فى إيدو (طوكيو الحالية) لأن تطبق سياسة العزلة، أولا لدعم النظام الإقطاعى التى عولت عليه الباكفو كثيرا لتأسيس دعائم نظامها ، وكذلك للتخلص من موجة الإيمان بالمسيحية التى رأت فيها عائقا ومضايقة لسياستها ، وأيضا لإضعاف العلاقات التى بدأت تظهر بين دايميوات غرب اليابان وتجار سفن التصاريح الحمراء ، وقد رأت حكومة الباكفو أنه بدلامن ترك التجارة الخارجية فى يد التجار والدايميوات تستطيع هى أن تتحكم فى هذه التجارة مما سوف يكون له أثره فى تقويتها، وإلى جانب

ذلك تكررت نصائح الهولنديين للباكفو بأن الإيمان بالمسيحية لن يكون فى صالح اليابان وذلك حتى تستحث الباكفو لإيقاف رحلات سفن التصاريح الحمراء لكون هذه السفن هى المنافس الأكبر للسفن الهولندية، وبالفعل أدت كل هذه العوامل السابق ذكرها إلى اتخاذ حكومة الباكفو عدة إجراءات صارمة لتطبيق سياسة العزلة.

وكانت البداية الفعلية لتطبيق سياسة العزلة عندما قامت حكومة الباكفو بإنشاء جزيرة دشيما ومعناها الجزيرة الخارجة، فى ميناء ناجاساكى عام ١٦٣٤م، وذلك بردم البحر فى هذه المنطقة، وكانت مساحتها ثلاث عشرة ألف ومائة متر مربع، وكان الهدف من إنشاء هذه الجزيرة هو عزل البرتغاليين بعيدا عن مدينة ناجاساكى ومنع اتصالاتهم بأهالى المدينة وكذلك حتى تتم عملية مراقبتهم بطريقة شديدة وصارمة وقد بُدئ بسكنى الهولنديين فى هذه الجزيرة منذ عام ١٦٣٩م، وكان بها حوالى أربعين مبنى، ولم يكن يعيش بها فى البداية سوى ثلاثة عشر هولنديا وكانت للجزيرة أبواب تغلق وعليها حراسة مشددة، ولم يكن من حق الهولنديين قاطنى الجزيرة مغادرتها، وكان يسمح لمدير الوكالة التجارية الهولندية المعين جديدا بمغادرتها مرة واحدة فى السنة لتقديم التحيات للشوجون فى مدينة أيدو، هكذا كان وضع الهولنديين الذين اعتبروا مميزين من بين الأجانب الذين تعاملوا مع اليابان فى تلك الفترة.

وبعد ثورة شيمابارا التى سوف يأتى الحديث عنها لاحقًا، ازداد حذر حكومة الباكفو أكثر وأكثر نحو المسيحيين، وكانت هذه الثورة قد اندلعت فى شبه جزيرة شيمابارا فيما بين عامى ١٦٣٧م و١٦٣٨م، وفى

عام ١٦٣٩م منعت الباكفو السفن البرتغالية من الإبحار لليابان، ثم فى عام ١٦٤١م نقلت الباكفو الوكالة التجارية الهولندية من ميناء هيرادو إلى جزيرة دشيما التى تحدثنا عنها للتو، والتى كان وضع الهولنديين فيها متأزما بالمقارنة مع ميناء هيرادو المفتوح نسبيًا، وبذلك تم منع الاتصالات البحرية مع البلد الوحيد الأوربى الذى ظل يتعامل مع اليابان ليتم وضعهم تحت الرقابة المشددة والعنيفة التى كانت تقوم بها مدينة ناجاساكى.

وهكذا تم تقييد حركة التجارة الخارجية والتى شهدت حركة نشطة فى شرق آسيا، ولم يكن هذا التشديد يمارس على السفن الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية فقط بل مورس أيضًا على السفن اليابانية ذاتها، ولكن الغريب أن الباكفو على العكس من ذلك أرادت أن تستعيد علاقاتها مع الصين فحاولت توسيط كل من كوريا وريوكيو من أجل ذلك، ولكن هذه المحاولة رفضت من جانب الصين، وفى هذه الفترة كانت تجارة الصين الخارجية لا تقل شأنا عن مثيلتها الأوربية ولذلك كانت السفن الصينية تأتى إلى كل موانئ جزيرة كيوشو. ولكن ولأن العلاقة الدولية بين الباكفو والصين كانت مقطوعة فقد سمحت الباكفو بنوع من التجارة الخاصة مع السفن الصينية تم قصره على ناجاساكى فقط، وهكذا فقد تم تطبيق سياسة العزلة (Sakoku) من قبل حكومة الباكفو ولم يمض على بدء عهد الطوكوجاوا سوى سنوات قليلة ليتم عزل اليابان عن العالم الخارجى، اللهم من محاولات فردية قام بها مغامرون وعلماء للاتصال بالعالم الخارجى وخاصة الغربى واستمرت هذه السياسة مطبقة حتى قبيل انتهاء عهد الطوكوجاوا أو بالأحرى عصر إيدو.

٦- ثورة الفلاحين فى شيمابارا :

وشـيمابارا هى شـبه جزيرة تقع فى جزيرة كيوشو إحدى الجزر اليابانيـة الأربع الكبرى، وقد حدثت بها وبجزيرة أماكوسـا المجاورة ثـورة عارمة للفلاحـين على حكام الجزيرتين فيما بـين عامى ١٦٣٧م و١٦٣٨م وذلك بسبب الضرائب العينية الباهظة التى فرضت عليهم ولم يسـتطيعوا تحملها، وذلك على الرغم مـن أن الجزيرتين كانتا تعانيان من المجاعة، فكان هذا ما زاد الطين بلة، وإلى جانب ذلك قمع الحكام للمسيحيين اليابانيين قاطنى الجزيرتين والذين كانوا يمثلون معظم سكان الجزيرتين حيث كانت المسـيحية قد دخلت إلى هذه المناطق من جزيرة كيوشو منذ زمن بعيد.

بـدأت أحداث الثورة فـى نوفمبر ١٦٣٧م عندما تجمع ما يقرب من ٣٧ ألـف من فلاحى شـيمابارا فى قلعة هارا القديمـة، ولأن غالبيتهم كانوا من المسـيحيين فقد رفعوا الصلبان والأعلام المسـيحية ووقفوا أمام جيـش عرمرم مكون مـن ١٢٠ ألف جندى أعدتهم الباكفو لإخضاع هذه الثـورة، وقد أجبرت حكومة الباكفو الدايميوات فى كل أنحاء كيوشـو لأن يجمعوا هذا العدد الكبير من الجنود، ولكن هذا الجيش العظيم لاقى مقاومة شديدة أدهشت الباكفو.

كانت الباكفو قد عينت حاكما جديدا على شـبه الجزيرة التى كان الإيمـان بالمسـيحية متجذرا بها، وهـذا الحاكم لم يكن مسـيحيا وهو ماتسـوكورا شـيجى ماسـا Matsukura Shigemasa (؟ - ١٦٣٠م) وعينت على جزيرة أماكوسـا حاكما جديدا أيضا لم يكن مسـيحيا أيضا وهو تراساوا هيروتاكا Terasawa Hirotaka (١٥٦٣م - ١٦٣٣م) وكلاهما

مارس قمعا شديدا على مسيحيى الجزيرتين وفرضا ضرائب عينية باهظة كما ذكرنا آنفا، مما حدا بالفلاحين إلى ثورتهم العارمة. وقد أعطوا قيادة ثورتهم إلى شاب صغير لا يتجاوز عمره ستة عشر سنة يُدعى ماسودا شيرو توكى سادا Masudashiro Tokisada(؟ – ١٦٣٨م) وقد اعتقد الفلاحون فى الجزيرتين الثائرتين أن هذا الشاب بعثه الله كمخلص لهم من الآلام والعذاب الذين يتجرعونهما، ويبدو لنا هنا من الوهلة الأولى تأثر هؤلاء الفلاحين بقصة وتجربة السيد المسيح، وربما يرجع هذا إلى عادة متأصلة فى اليابانيين منذ الأزل فى إعادة إنتاج التجارب والأشياء بوحى من فكرهم الخاص، حتى لو تمثل ذلك فى ذلك الصبى الصغير.

على أية حال فقد فشل القائد الأول الذى أرسله الباكفو وكان يدعى إيتاكورا شيجى ماسا Itakura Shigemasa (١٥٨٨م – ١٦٣٨م) فى إخماد الثورة وتوفى أثناء هجومه على أطلال قلعة هارا التى تحصن بها الثوار، ثم أرسلت حكومة الباكفو مستشار الشوجون ماتسودايرا نوبوكاتسو Matsudaira Nobukatsu (١٥٩٦م – ١٦٦٢م) الذى استطاع قيادة نحو ١٢٠ ألفا من الجنود وحاصر القلعة وقام بشن حرب تجويع ضد الثوار حتى يموتوا جوعا، بل إنه طلب من السفن الهولندية ضرب القلعة التى يتحصن بها الثوار من البحر بالمدافع ، وقد استمر هذا الحصار والمقاومة من الثوار حوالى أربعة أشهر حتى سقطت فى النهاية القلعة وتم إخماد الثورة عن طريق جيش الباكفو الضخم وكذلك تحت وطأة مدافع الهولنديين الذين عادوا إلى هيرادو بعد إتمام مهمتهم التى أوكلها لهم نوبوكاتسو، ولكن كانت نتيجة هذه الثورة مفجعة بكل المقاييس فقد قتل القائد الشاب توكى سادا مع العديد من الجنود الذين قاوموا حتى

النهايــة ، ولم ينج من الموت ممــن بقوا على قيد الحياة لأنهم قتلوا عن بكرة أبيهم سواء كانوا رجالا أو نساءا أو أطفالا.

وبالطبع كان لثورة فلاحى شــيما بارا المســيحيين الأثر الكبير فى سياســة الباكفو نحو المســيحية فقد اعتبرت أن القيام بالثورات هو فعل أصيل من أفعال المســيحية وعليه أخذت تشدد من قمعها وضغطها على المســيحيين، وكان أكثر صور القمع شهرة هى إذلال المؤمنين بالمسيحية عــن طريق صنــع لوحة من النحاس الأصفر ونحتوا عليها صورة الســيد المسيح أو السيدة مريم ثم إرغام المسيحيين بوطأها بأقدامهم مما كان يؤلم المؤمنين بالمســيحية أيما إيلام ، وكانوا عن طريق هذه الوسيلة يكشفون عن هوية اليابانى إذا ما كان مؤمنا بالمســيحية أم لا من تعبيرات وجهه وبذلك يبدأون فى معاقبته وإيذائه ، وكان هذا الإجراء يتم بصور شائعة ومتكررة فى مناطق شمال جزيرة كيوشو، وذلك لكثرة المؤمنين بالمسيحية هناك.

كذلك ومن أجل الإمعان فى تحريم الإيمان بالمسيحية فقد أحدثت حكومــة الباكفو فى ١٦٤٠م وظيفة خاصــة للتأكد من مذهب اليابانيين الدينــى، فكان يبحث فى هذا الأمر موظــف خاص، وذلك حتى يمنع اليابانيين من الإيمان بالمسيحية وفى عام ١٦٦٤م تم تعميم هذه الوظيفة فى كل أنحاء البلاد.

وفى الحقيقة لم تكن المسيحية فقط هى التى تلقت معاملة سيئة من الباكفــو ولكن كان هناك مذاهب معينة فــى البوذية تتلقى نفس المعاملة مثــل طائفة نيتشــيرن شــو Nichirenshū وطائفة أخــرى متفرعة عن الطائفة الســابق ذكرها، وذلك لأن هذه الطوائــف تعظم من قيمة الدين والإيمان أكثر من قيمة وأهمية الباكفو والسلطات المحلية.

وكان من نتائج ثورة شيمابارا كذلك منع حكومة الباكفو للسفن البرتغالية منعا باتا من الإبحار فى الموانئ اليابانية وذلك فى عام ١٦٣٩م لتكتمل عملية العزلة كما ذكرنا آنفًا، ثم قامت حكومة الباكفو بنقل الوكالة الهولندية التجارية من مدينة هيرادو إلى جزيرة دشيما التى طرد منها البرتغاليون ومارست رقابة صارمة على الهولنديين وتجارتهم، وهكذا لم يبق فى اليابان سوى مكانين فقط تطل من خلالهما اليابان على العالم وهما دشيما حيث يوجد الهولنديون وناجاساكى حيث كانت تأتى السفن الصينية إليها.

وتختلف الآراء حول جدوى العزلة التى فرضتها اليابان على نفسها طواعية فهناك الرأى الذى يقول إنها كانت مائتى عام أبعدت اليابان عن تقدم العالم فكانت فترة سلبية بالنسبة لليابان. والرأى الآخر الذى يقول إنها مائتى عام من الهدوء والسلام، والباحث من وجهة نظره كمصرى رأى مصر تعانى من أطماع الاستعمار الغربى وغير الغربى يجد أن العزلة وإيجابياتها قد أتاحت لليابان فرصة جيدة لأن تبعد بنفسها عن الأطماع الاستعمارية وكذلك الاحتفاظ بهوية اليابان نقية، الشئ الذى جعلها عندما أرادت الانخراط فى العالم الحديث وتوجهها نحو الغرب، أن تبدأ بداية قوية كما أوضحنا فى كتابنا «تاريخ اليابان فى عصر فيجى» ولم تعان من التدخلات الأجنبية ومطامع الاستعمار كما عانت مصر، وكان هذا أحد الأسباب التى من أجلها انطلقت النهضة اليابانية انطلاقة قوية ومستمرة حتى يومنا هذا، فى حين تعثرت النهضة فى مصر كثيرا برغم بدايتها قبل النهضة اليابانية بنحو خمسين عاما.

ومهما قيل عن عزلة اليابان فإنها فى الحقيقة لم تكن عزلة

مائـة بالمائة فقد كان هناك عدد من العلماء الذين أبوا على أنفسـهم أن يستسـلموا لأمر العزلة وقاوموها وعملوا على اقتبـاس العديد من مظاهر الحضارة الغربية والأخذ عنها وخاصة فى مجال الطب ، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل من خلال الفصل الثامن بإذن الله.

٧ - الأوضاع فى الريف والحضر :

لم يكـن المشـهد الذى رأينـاه من معاناة الفلاحين فى شـبه جزيرة شـيمابارا وجزيرة أماكوسـا سوى واحد من عشـرات بل مئات المشاهد التـى تكررت فى كل أنحاء اليابان تقريبا، ولكن بالطبع كانت النهاية المأسـاوية التى انتهـت إليها معاناة الفلاحين فى شـيمابارا نهاية غير مسبوقة فى كل اليابان، فقد قامت فى كل أنحاء البلاد ثورات فلاحية عديدة ضد حكومة الباكفو وضد الحكام المحليين بسـبب المعاملة السيئة وفرض الضرائب المتعسف الذى أرهق الفلاحين أيما إرهاق.

فقد اقتدى معظم حكام عصر إيدو بمقولة مؤسـسـة «إيياسو الشهيرة» احصـل على الضرائب مـن الفلاح بحيث لا تجعلـه يموت ولا تجعله يعيش وقد قام بشـرح هـذه المقولة بالتفصيل مستشـار إيياسـو هوندا ماسـانوبو Honda Masanobu (١٥٣٨م – ١٦١٦م) للشوجون الثانى هيدى تادا قائلاً: «إن الفلاح هو أسـاس الدولة، ومن أجل التحكم فى الفلاحين يجب أولاً فحص إنتاج حقول كل فلاح كل على حدة بطريقة حازمـة ويجب إبقاء ما يكفيه بالكاد لسـنة واحدة مـن الطعام والبذور والثمـار، وما زاد عن ذلك يؤخذ منـه كضرائب عينية، ولا يجب إبقاء لدى الفلاح ما يزيد عن حاجته، فقط ما يكفيه لكى يعيش على الحافة لدرجة أن لا تبقى لديه شىء».

وننده‍ش من هذه النظرة الانتقامية من قبل الحكام نحو الفلاح على الرغم من أنه وُضِع فى النظام الإقطاعى الذى طبقه إييياسو وخلفاؤه فى المرتبة الثانية بعد المحاربين مباشرة كما ذكرنا آنفًا، واعتبره الحكام كنز البلاد، إلا إننا يمكن بتعبير آخر أدق يمكن أن نعرف قدر الفلاح فى أعين الحكام وهو أنهم اعتبروه كالبقرة الحلوب، وقد صدرت عدة فرمانات من أجل إجبار الفلاح على دفع الضريبة العينية وكذلك إلزامه بأسلوب معين فى الحياة، إلا أن أشهر هذه الفرمانات كان فرمان عام ١٦٤٩م ويطلق عليه كيآن نوأفورى جاكى Keian Noofuregaki نسبة إلى الفترة التقويمية التى صدر فيها هذا الفرمان أى فى عهد الشوجون الثالث إييميتسو وقد صدر هذا الفرمان بعد مجاعة كانئى التى حدثت فى عام ١٦٣٠م وكذلك بعد عدة حوادث جعلت الباكفو تفكر جيدا من أجل تنظيم حياة الفلاح وإعطاءه عدة نصائح أو بالأحرى أوامر لابد وأن يتبعها حتى يستطيع إنتاج أكبر قدر من المحاصيل فتزيد بالتالى الضرائب العينية التى كانت تحصل عليها الحكومة والتى كانت تزيد على أكثر من نصف الإنتاج الكلى للفلاح ومن ضمن هذه التعليمات والأوامر التى جاءت بهذه اللائحة ما يلى :

١ – على الفلاح أن يستيقظ مبكرًا، وينظف الأرض من الحشائش، وعند الظهيرة يفلح الأرض، وفى المساء يجدل الحبال ويصنع الأجولة، وعليه أن يفعل كل هذه الأعمال بجد ونشاط.

٢ – على الفلاح ألا يشرب الخمر أو الشاى.

يجب على الفلاح الذى لديه الزوجة الجميلة التى تشرب الشاى بكثرة أن يطلقها ويقطع علاقته بها تماما.

٣ – يجب أن تكون ملابس الفلاح مصنوعة من القطن أو الكتان ويكون لونها إما أسود أو كحلى.

هكذا نرى أن الفلاحين فى عصر إيدو لم يعانوا فقط من كثرة الضرائب وقسوة الحكام فقد بل إنهم عانوا أيضًا من القيود التى كانت تفرض على حياتهم اليومية لدرجة أنهم كانوا لا يستطيعون التدخين أو صنع الطعام اليابانى المشهور المصنوع من الأرز الأبيض «نيجيرى مشى» والذى كانوا يحبونه ، فكان عليهم أن يتناولوه فى الخفاء، ولكن ماذا لو لم يتبع الفلاح هذه التعليمات أو إذا لم يسدد الضرائب التى تطلبها السلطات، الحقيقة أنهم كانوا يُعاقبون أشد العقاب، فمثلاً كانت زوجة الفلاح وأولاده يؤخذون منه، ويصبحوا خدما لدى الحاكم، أو كانوا يغرقون فى المياه الباردة، أو أن يوضع الفلاح على حصان خشبى ذى حافة شديدة الانحراف وتعلق فى قدميه أثقال شديدة حتى يزيد ذلك من شعوره بالألم.

ولكن عندما كانت الضغوط تزيد عن حدها من فرض ضرائب وتعذيب شديد ولم يعد الفلاحون يستطيعون التحمل ، فكانت الهوجات والثورات تهب بشدة ضد الحكومة، كذلك كان الفلاحون يتشاورون فيما بينهم ثم يقررون ترك أراضيهم ويهربون إلى أماكن أخرى بعيدة.

وبرغم الظروف القاسية التى كان يعانى منها الفلاحون من ضرائب باهظة وقلة إنتاج الحقول أو الكساد الشديد والمجاعات الكثيرة التى كانت تهاجمهم من وقت لآخر إلا أن هذا كله لم يمنع الفلاحين من الاستمتاع ببعض الأوقات خلال السنة الواحدة مثل سعادتهم بقدوم السنة الجديدة وصنعهم كعكة الأرز معا وشرب خمر الساكى اليابانى

الشهير، وكذلك باحتفالهم بعيد الأوبن (Obun Matsuri) فى الصيف والرقص معا فى هذا العيد، والغريب أن هذا العيد هو فى الأصل احتفالا بالموت والأموات، ولذلك يزور اليابانيون خلاله مقابر موتاهم، ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع به.

أما سكان المدن (Chonin) فهم هؤلاء التجار والموظفون والحرفيون الذين كانوا يسكنون المدن، وبتحديد أكثر فهم هؤلاء الذين كانوا يملكون بيوتا أو قصورا فى المدينة، هؤلاء فقط كانوا يعترفون بهم أنهم تشونين (سكان المدن) ذلك لأنه كان هناك الكثير من الناس من يستأجرون بيوتا أو أراض فى المدن، فهؤلاء ليسوا مدنيين ويقال إنه كان هناك حوالى ٦٠٪ من مجموع سكان المدن الكبرى فى عصر إيدو مستأجرين للبيوت.

وقد شكل سكان المدن حوالى ١٠٪ من المجموع الكلى للسكان فى عهد إيدو، وقد تطورت المدن فى عصر إيدو تطورًا كبيرًا عن مثيلتها فى عصر الحروب الذى سبق عصر إيدو، فقد ظهرت وبصفة أساسية المدن القلاعية ثم المدن الملاحية والمدن ذات الطبيعة السياحية (الفندقية) ثم المدن الدينية. وإذا ذُكرت كلمة مدينة أو سكان المدينة فى عصر إيدو فإن التفكير يذهب بالأساس نحو مدينة إيدو وسكانها وهى مدينة قلاعية أسسها طوكوجاودا إيياسو، ومن مميزات هذه المدينة أن ٦٠٪ من مساكنها كانت بيوتا أو قصورا للمحاربين و٢٠٪ منها بيوت أ و قصور للتجار ونسبة الـ ٢٠٪ الباقية من المبانى فكانت عبارة عن معابد بوذية وشنتوية.

أما بالنسبة لحرفيى عصر إيدو فكانوا نوعين الأول وهم هؤلاء الذين كانوا يعملون لحساب الباكفو والدايميوات وغيرهم من حكام المدن وكانوا

ذوى حـظ وافر حيث حصلوا على العطايـا والقصور أما النوع الآخر من الحرفيين فهم هؤلاء الذين كانوا يعملون لصالح عامة الناس، وكانوا فى الغالب يعيشون متكتلين فى مكان بعينه من المدينة القلاعية، وكان لكل حرفـة نقابة خاصة أو رابطة ترعـى مصالح أعضائها وتراقبهم فى ذات الوقـت. فلم يكن الحرفيون يعملون بكامل حريتهم. وكان لابد للحرفى أن يتبع رئيس ما لمدة سـبع سـنوات أو عشر سـنوات. ويتلقى أوامره خلال تلك الفترة، وخلال تلك السـنوات لم يكن يُسمح للتلميذ الحرفى أخـذ أى نـوع من الأجازات المسـموح بها حتى للخـادم، وإذا انتهى الحرفى من هذه الفترة فإنه ينضم للنقابة ويُعترف به كحرفى محترف.

والتجار كذلك مثل الحرفيين كونوا النقابات والطوائف التى تجمعهم وكما الحال فى الحرفيين فقد كان على الشـخص الذى يريد أن يصبح تاجرًا أن يتبع أستاذًا معينًا. وهو ما يزال فى سن العاشرة، وأن يلتحق ببيت تاجر ويعمل ويخدم فى هذا البيت حتى يستطيع أن يصبح تاجرا محترفًـا، ولابد لهذا المتدرب أن يحصل على إذن من البيت أو السـيد الذى يتدرب لديه أو بالأحرى يخدم به حتى يسـتطيع أن ينتقل لمكان أو لأستاذ آخر ، وعليه أن يصبر على تحمل المعاملة السيئة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولاً، وربما من هذا المنطلق تولدت روح المثابرة والتحمل لدى العمال والموظفين فى اليابان إلى يومنا هذا.

وإذا كان الحديث عن المدن وسـكانها فى عصر إيدو فهو ينسـحب كذلـك علـى مدينتين أخريين غـير مدينة إيدو وهما أوسـاكا وكيوطو، والمدن الثلاث يطلق عليهم اصطلاح تاريخى هو Santo أى المدن الثلاث وتميزهـم عن باقى المدن اليابانية، فإذا كانت إيدو هى مركز السياسـة

فى اليابان آنذاك فإن أوساكا كانت تعتبر مركز التجارة، وكيوطو مركز للديانات والعلوم والفنون وذلك لأنها كانت مدينة تراثية عريقة أما مدينة أوساكا فقد اعتبرت منذ وقت مبكر «مطبخ اليابان» وذلك لأنها كانت مكان لتجميع المواد التجارية من كل أنحاء منطقة غرب اليابان، ومنطقة هوكوريكو (محافظات طوياما وإيشياكاوا وفوكوى ونييجاتا) فقد ازدهرت كمدينة تجارية كبرى، وبسبب تجمع الكثير من الوكالات والمخازن التجارية التى تخزن بها أرز الضريبة العينية ومختلف المواد الأخرى فقد أطلق عليها لقب المخزن «Kuramono» ، وقد انتقلت بعد ذلك تلك الوكالات التجارية والمخازن إلى مدينة إيدو وغيرها من المدن فى كل أنحاء اليابان إلا أن الكثير من أصحاب هذه الوكالات والمخازن ظلوا يسكنون فى أوساكا نظرًا لأهميتها التجارية.

أما مدينة كيوطو فقد كانت منذ القدم قصرًا للإمبراطور وللأمراء وكذلك تجمعت بها المقرات الرئيسية للمعابد سواء البوذية أو الشنتوية، وشىء آخر ميز مدينة كيوطو عن غيرها ألا وهو وجود المحلات التى تبيع الملابس غالية القيمة وغالية الأثمان والتى اشتهرت بها مثل منسوجات نيشيجين Nishijinori ومصبوغات كيوطو Kyozome وغيرها من المنسوجات التى اشتهرت بها كيوطو قديمًا وحتى اليوم، وكانت معظم ملابس ومنسوجات الباكفو والدايميوات من إنتاج مدينة كيوطو التقليدية.

* * *